صور من الشعر الحديث في العراق

للاستاذ ابراهيم الوائلي

الكاظمي

لم يطل مكث الشيخ عبدالمحسن الكاظمي في العراق فقد هاجر منه إلى مصر سنة ١٨٩٧ م وهو في السابعة والعشرين أو الثانية والثلاثين واستقر به المقام في القاهرة سنة ٨٩٩ م والتاريخ يحدثنا أن الكاظمي ترك العراق مرغماً من قبل السلطات الحاكمة وقد كان تركه هذا أشبه شيء بالهرب . ويقول الذين أرخوا هذه الفترة من حياته : إنه اضطهد بسبب اتصاله بالسيد جمال الدين الأفغاني عند مروره بالعراق لأنه تأثر بمبادئه واقتبس من آرائه فغضبت عليه السلطات واضطرته إلى مغادرة العراق . غير أن الذي وجدناه في ديوان الكاظمي لا يدل على مناهضته للسياسة العثمانية يوم كان في العراق بل وجدناه شاعرا مؤيدا لهم هاتفا بمجدهم ؛ وقصيدته « حرب الحياة الباقية » المنشورة في الجزء الأول من ديوانه دليل واضح على تأييده للعثمانيين وحثهم على محاربة الأوربيين وبخاصة دول البلقان متى ثارت عليهم في أواخر القرن التاسع عشر ومن هذه القصيدة :

حماة العلى قد آن حصد الجماجم ... أقيموا العلى واستأصلوا كل هادم

* * *

حماة العلى طال السكوت فماذر ... إذا نطقت أسيافكم في الجماجم
خصومكم ضلوا وطاشت سهامهم ... وما رموا إلا بشر المياسم
رعاياكم يا آل عثمان أصبحوا ... ملوكا . وملك البغي ليس بدائم
أرى دول البلقان طالت أنوفها ... على دولة آثارها في المخاطم

والقصيدة طويلة وكلها مدح واستنهاض . ولا نستطيع أن نفسر هذا المنحى الذي نحاه الكاظمي ازاء سياسة الأتراك إلا بالعاطفة وحدها وهي التعصب للاسلام ؛ فهو إذاً لا يعدو هذه العاطفة الاسلامية التي أنسته كل شيء فلم يقف في طريقه ما عاناه العراق من تدهور وتأخر في ظل الحكم العثماني

ولا نريد أن نحاسب الكاظمي على هذا الموقف الذي وقفه ما دام منبعثا عن حسن نية وصفاء عقيدة. على أنه موقف واحد سبقته مواقف لا ترضي العثمانيين ، وتلته مواقف أخر فيها الشدة والصرامة عليهم . أما الأولى فدليلها السخط الذي انصب عليه فاضطر إلى الهرب ، وما يرويه المؤرخون من أن له مذكرات قذف بها في نهر دجلة . وأما الثانية ففي ديوانه المطبوع ما يكفي للتدليل عليها؛ ففي الديوان قصائد كثيرة نظمها في مصر وفيها دعوة إلى الحرية وتنديد بسياسة الأتراك في العراق وحنين إلى وطنه الأول وابتهاج بخروج الأتراك منه وانتهاء حكمهم له ، ورغبة ملحة في أن يحكم العراقيون أنفسهم بدلا من أن يحكمهم أي أجنبي . وهذه العواطف التي تنساب في قلب الكاظمي تجدها ماثلة في قصيدته « ذكرى الفتوح » وقد نظمها يوم حملت إليه الأنباء هزيمة الأتراك من العراق .

عمي بغداد يوقظها بياني ... فتقرأ فيه أبكار المعاني

يقهر المعاني أو يحشر الألفاظ بل انثالت عليه المعاني في تداع طبيعي وانقادت له الألفاظ آخذا بعضها برقاب بعض ، وواتته القوافي طيعة لينة فكان في ذلك كأنه من قصده ابن قتيبة في قوله (والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراك في صدر بيته عجزه وفي فاتحته قافيته وتبينت على شعره رونق الطبع ووشي الغريزة ...) ولعل سر نجاحه في هذا الباب صدق عاطفته وقوة شعوره ، فإن صدق العاطفة وعمق الشعور يكسبان الأسلوب صفة القوة متى كان صاحبهما قوي السلطان اللغوي خبيراً بفن التعبير وما نظن أن حظ الجارم من هاتين الميزتين قليل .

وبعد فهذا ولاء الجارم لعرش بلاده هتف به في شعره وشدا به في بيانه بعد أن آمنت به نفسه فجعله فرضاً لازماً عليه وعلى الشعب فقال : —

إذ الشعب والاه فذلك فرضه ... وإن هو فداه فذلك واجبه

عبد الجواد سليمان
مدرس بعطفات سوهاج

مضى أمس فلا يرجى لأمس مآب أو يؤوب القارظان
فلا العهد القديم له بباق ولا الذكر الحميد لنا بفان

ونجد الشاعر يعبر بوضوح عما كان يعانيه فى العراق من اضطهاد المناوئين له وأنه لم يستطع أن يجاهر بآماله وخواطره حتى إذا استقر به المقام فى مصر وانتهت دولة الأتراك من العراق لم يجد ضيقا فى مجال التنفس ولا حرجا فى البوح بما يكنه لبلاده .

هل الزوراء تعلم ما عراها غداة دنا النفير وما عرانى
أبوح بما أكن وكنت دهرا أحاذر أن أبوح بما أعانى

ويهتز الشاعر بشرا حين استراحت بغداد من الأتراك .

أتانى أن بغدادا أريحت فلا كذب البشير بما أتانى
أريحت من ليال كن نارا فمن بكر تشب ومن عوان
ورد لها التراث فلا بعيد ينازعها التراث ولا مدان

ثم يدعو بغداد إلى الاستمرار فى الجهاد ويحثها على السير فى طريق الاستقلال .

أعيذك غرة البلدان من أن تخورى فى جهادك أو توانى
إذا نامت ظباك فقل سلام على تلك المنازل والمغانى
بنوك الفرأم «جنكيز» أحرى بهذا الملك من قاص ودان
فيرى لامرتك غير بشرى يسيل بها لديك الرافدان

ويكرر هذه العاطفة فى قصيدة عنوانها « أنين وحنين » وأولها شعر تقليدى الأسلوب ولكنه لا يخلو من عاطفة الشاعر المحب لوطنه ولبلاده . وبعد هذا الحنين والشوق يبكى مجد بغداد الغابر وتاريخها الذهبي أيام بنى العباس .

أين تلك القصور والدور أضحت حيث أضحت مقابرا وسجونا
ما ذكرنا تلك الليالى إلا وبكينا هارون والمــــأمونا

ثم يخاطب بغداد بأبيات تدل على حزنه الكامن وتفجعه بما جرى على بغداد من نكبات .

أقصرى الشكوى يا ربوع المعالى رب شكوى مرت فكانت أنينا
لم يخنك الأمين يوم تولا ك ولكنك ائتمنت الخئونا
كان للعدل من تراثك نصيب عبثت فيه أثرة الحاكينا
ومن الماالكين من لا يرى الـملـك سوى آلة تقيه الدونا
يستفز القانون والدين لكن لا يراعى دينا ولا قانونا

ومثل هاتين القصيدتين قصائد أخرى تتشابه معهما فى الدوافع والإحساس وفى العاطفة الصادقة التى يثيرها الحنين إلى الوطن والتطلع إلى الحرية المحروبة أمام الغشم والاستعمار

ونجد الكاظمى فى قصائد غير قليلة يمدح الملك الحسين وأولاده ويشير إلى ثورتهم على الأتراك ويبارك هذه الثورة ولكنه لا يتحدث عن الأتراك وأعمالهم كما يجب أن يكون عليه الشعر السياسى بل يجتاز هذا إلا قليلا ويترك شاعريته تنطلق فى آفاق المدح وإطراء الممدوحين ومواقفهم فى سبيل العرب والأمة العربية. غير أن هذه القصائد لا تخلو من العاطفة القومية التى تجرى فى عروق الشاعر وتتبلور فى أفكاره وتأملاته فهى تفيض بالشعور العميق لتأييد الثورة العربية على الأتراك . ونترك استعراض هذه القصائد لطولها وما فيها من مدح وثناء يكاد يكون مكرراً مسموعا ولما فيها من لهجة قاسية على الأتراك مكتفين ببيتين من قصيدة عنوانها «هذا الحسين» ويعنى الحسين بن على ملك الحجاز أنذاك

أمطرت بالبيض الذكور مطهرا أرضا بهاعات الشرير ودنسا
ونجابك البيت الحرام وللورى أمل بأن تنجى ظباك القدسا

من هذا الذى درسناه يتضح لنا أن الكاظمى صاحب عقيدة دينية راسخة القواعد لا يرضى لها أن تذل وتخضع لأية عقيدة أخرى، وعاطفة قومية منيفة لا يريد لها أن تتصاغر لأية أمة أخرى ولو كانت من المسلمين . وهو فى كلتا الحالتين واسع الآمال والابعاد لا يحتوية العراق — وإن كان وطنه الحبيب — ولا الجزيرة العربية — وإن كانت مهد العرب — بل كان يخفق بجناحيه فى آفاق العروبة أينما حلت وأيان أقامت، وفى دنيا المسلمين مهما اتسعت رقعتها . على أن الكاظمى شاعر إنسانى يحب الخير للبشر جميعا ولكن الحديث عن انسانيته لا يستقيم لنا فى هذا البحث المحدود .

بقى أن نشير إلى شىء له علاقة بالموضوع الذى نتحدث فيه وهو أن الكاظمى لم يشر إلى عودة الدستور فى تركيا ولم يتحدث عنه بخير أو شر كما سنرى ذلك عند الزهاوى والرصافى ولا سيما أن اعلان الدستور اتفق أيام كان الكاظمى فى مصر التى كانت منفصلة عن الخلافة العثمانية . وفى حيث لا يخشى الشاعر بأس أحد . يضاف إلى هذا أن اعلان الدستور كان بأمر من عبد الحميد ذلك الرجل الذى مدح مع من مدح فى قصيدة « حرب الحياة الباقية »

التي أشرنا إليها في صدر البحث . ولعل الكاظمي قد قال في ذلك شيئاً ولكنه لم يصل إلينا .

الزهاوي

لا نريد أن نترجم لجميل صدقي الزهاوي ترجمة تاريخية . ولا نريد أن نتتبع حياته المادية كيف قضاها ، وكيف كان يحياها . بل نريد أن نتحدث عنه كما تحدثنا عن الكاظمي فلا نتجاوز شعره ولا نلم إلا بالسياسي منه . وندع هذا الشعر نفسه يصف لنا جوانب من حياة الشاعر في بغداد وفي تركيا وما لاقى من اضطهاد وتشريد بسبب دعوته إلى التحرر من حكم العثمانيين فكان ثائراً حانقاً شديد اللهجة على خصومه أيام استبدادهم، ثم هادناً مطمئناً كبير الأمل يوم أعيد الدستور . وفي ديوانه « الكلم المنظوم » دليل واضح على ثورته واستيائه من سياسة العثمانيين ودعوته الجريئة إلى التخلص منهم . وشعره هذا لا يخلو في كثير من المواطن من الناحية القصصية التي يتحدث بها عن حياته وما كان يلاقيه من الجواسيس والحكام ، وما ينزلون من بلاء على كل بريء يدركونه؛ فدولة الأتراك في ذلك الوقت — كما يراها الزهاوي — دولة همجية تعبث بالعراق وسوريا واليمن وتجور على هذه الأقطار وتستنفد خيراتها بلا وازع ولا ضمير ، والسلطان لا يرتضي رأي ناصح ولا يستجيب لمشورة أحد ، ولا يعمل بما أنزل الله وما صدع به النبي الكريم . نجد هذا في قصيدة عنوانها « حتام تغفل » وقد نظمها أيام طغيان عبد الحميد وقبل إعلان الدستور بسنوات قليلة . ومنها :

ألا فانتبه للأمر حتام تغفل   أما علمتك الحال ما كنت تجهل

ويسير على هذه الوتيرة في أبيات غير قليلة يدعو فيها أمته وشعبه إلى التكتل والنهوض والثورة على حكومة الأتراك ثم يصف هذه الحكومة فيقول :

وما هي إلا دولة همجية (١)   تسوس بما يقضي هواها وتعمل
فترفع بالاعزاز من كان جاهلا   وتخفض بالأذلال من كان يعقل

(١) في اللباب : مستبدة

ولا نريد أن نتعرض للبيت الأخير بالنقد من الوجهة اللفظية واعتماده على الصناعة والتقليد فنقول : ان الشاعر كان نحويا حين رفع وخفض ، وكان بديعيا حين طابق بين الجهل والعقل . لا نريد هذا وإن تكن الوسيق اللفظية من أهم العناصر في الشعر — وإنما يكفينا هذه الصورة التي يضعها الشاعر في إطار الواقع عن تلك الحكومة التي أساءت إلى نفسها وإلى غيرها ، هذه الصورة تبرز لنا في هذا البيت وفي غيره من أبيات هذه القصيدة ، فالدولة العثمانية دولة همجية مستبدة كما سبق ، و حكامها وولاتها .

إذا نزلوا أرضا تفاقم خطبها   كأنهم فيها البلاء الموكل

ولم تسلم منهم البلاد العربية وأقطارها .

فدت إلى سورية يد عسفهم   تحملها من ظلمهم ما تحمل
وبغداد دار العلم قد اصبحت بهم   يهددها داء من الجهل معضل
وسل عنهم القطر اليماني إنه   يبث بما يجري عليه وينزل

ثم يتحدث عن السلطان عبد الحميد ونترك مجال التصوير للشعر وحده :

وذي سلطة لا يرتضي رأي ناصح   إذا قال قولا فهو لا يتبدل
أيأمر ظل الله في ارضه بما   نهى الله عنه والنبي المبجل
فيفقر ذا مال وينفي مبرأ   ويسجن مظلوماً ويسبي ويقتل

ثم يلتفت إلى عبد الحميد فيهدده ويتوعده بسوء العاقبة :

فيا ملكا في ظلمه ظل مسرفا   فلا الأمن موفور ولا هو يعدل (١)
تمهل قليلا لا تنظ أمة. إذا   تحرك فيها الغيظ لا تتمهل
وايديك ان طالت فلا تغتر وبها   فإن يد الأيام منهن أطول

ونحب أن نستمع إلى الزهاوي وهو يقص علينا ما لاقاه في تركيا من عنت واضطهاد وما قوبل به هو وصحبه من مراقبة شديدة وتجسس بغيض ، ثم ارجاعه إلى بغداد مقهورا ونفي أصحابه الذين كانوا معه ، نجد هذا كله في قصيدته « أين المفارق » وقد نظمها سنة ١٣١٧ هـ ونترك أول القصيدة آخذين ما فيها من وصف للظلم والجاسوسية ، وما فيها من احتجاج شديد وجهه الشاعر إلى خصومه فلم يفده شيئاً :

(١) أخذنا هذا البيت من اللباب كما هو في الترتيب .